

العربية فلسفة و حياة

للدكتور احمد عبد الرحيم الطايح

من شيوخ جامع الأزهر (القاهرة)

هذه اللغة العربية وسعت مبادئ ومثلا وتبعا مساوية لم تضق بها ، ولم تنطل عن احتمال اعبائها . بل في ظل حضارة الاسلام مرنت وامتمت وتفاعلت ونمت نماءها الطبيعي المتطور من داخلها .

ولم تمض حقب طويلة حتى غدت لغة الشعوب من اواسط آسيا الى جبال البرانس في شمال اسبانيا ولم تستطع لغة من لغات هذه البيئات ان تثبت لها ، أو تحول بينها ، وبين سيادتها ، وقد يكون من اسباب ذلك انها لغة القرآن الكريم ، وقد يكون من اسبابه قوتها وجبالها الفني . ومهما تكن الاسباب فانها أصبحت لغة قومية لامم وشعوب قد تختلف وتتباين في اجناسها وأصل نشأتها ، ولكنها تأتلف وتتحد في عروبتها فهي جميعا تنضوي تحت لوائها وتتلقن لسانها ، وتعب من قرآنها وشعرها وبياناتها ، فتستطيع ان تعيش لها وبها ، وتحين فيها حياتها المعنوية : الادبية والعقلية ، وهي ما تزال الى اليوم لغة شعوب الشرق العربي من الخليج الى المحيط الاطلسي ، تتوهج جذوتها ، وترسل ضوءها وشهرها الى كل مكان حتى في امريكا ، فقد تناول منها المهاجرون الى تلك الديار النائية اقباسا لا تزال تضيء في مجلاتهم وآثارهم الادبية .

وواضح انها اجتازت آمادا واحقبا متطاولة من الزمن ، وقد الت بها خطوب كثيرة ، ولكنها وقفت في طريقها كالصخرة في مجرى السيل ، يلم بها ثم يزايلها ، وليس معنى ذلك انها ظلت جامدة لا تتطور ، بل لقد تطورت اطوارا كثيرة بحكم ما التقت به من ثقافات ، وقد حولت اليها وصبت فيها ثقافات الفرس واليونان والهند ومصر واسبانيا اللاتينية ، فوسعتها ، وتمثلتها تمثلا منقطع النظير ، وكانها

لقد تفضلت مجلة اللسان العربي بنشر مقالنا الذي جعلنا عنوانه « العربية » في عددها الرابع ، ويسرني جدا أن أتابع الحديث والكتابة عن اللغة العربية فانها — بلا مرأى — اللغة الوحيدة التي فتحت صدرها لتراث الانسانية الخالد ، ومعارف البشرية كلها ، كما اتسعت لمقومات الامة الاسلامية التي شرقت بالحضارة وغربت ، برزت في اواسط القرن السادس بغتة تتمتع بقوة باللغة اشدها ، فما عرف التاريخ لها طفولة ولا نموا ، وما بدت الا لتكون لسان التمدن فانطلقت من شبه الجزيرة العربية تنتقل الى الامصار القصبية مفرداتها ، وخصائصها ، وبفضل حضارة الاسلام صارت ابعد اللغات مدى واوسعها أفقا ، وستظل العربية حية ما دام الاسلام حيا . فمن ذا الذي لا يعرف للقرآن فضله في بقاء العربية حية ؟ ومن ذا الذي يجهل ان اللغة العربية باقية ما بقي الاسلام ؟ من ذا الذي لا يعترف بما ادته هذه اللغة من خدمة للانسانية ، وبانها كانت ، ولا زالت الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارة اليوم .

لقد اندثرت جميع اخواتها السامية من آرامية ، وكنعانية ، وكلدانية ، وسريانية ، وأشورية ، وعبرانية قديمة ، وغيرها ، في حين بقيت هي على رغم ما مر بها من عصور الركود والجمود ، وما فتئت تفيض بالقوة والحيوية والحياة .

انها الحصن المنيع الذي تحتمي فيه العروبة من طغيان العامية واللهجات المحلية . انها الرابطة النفسية التي تجمع بين أهل البلاد المتباعدة ، والصيغة الجميلة التي نودعها مكونات العقول والقلوب جيلا بعد جيل .

أصبحت نهرا كبيرا تتدافع إليه جداول شتى من الفكر والمعرفة ، وهو لا ينحرف ، ولا يغير وجهته ، بل يجري غزيرا زاخرا متدفقا متحميا كل ما يصادفه من حواجز وسدود ، ولقد وحدت اللغة العربية بين الامم والشعوب ، فاذا هي جميعها عالم عربي واحد مهما تدانت أو تباعدت ومهما شرقت أو غربت(1)

نعم انها لغة عجيبة أنضجها الزمن المتطاوول في البقاع الشاسعة من الجزيرة وأخرجتها الفطيرة السليمة ، والاحساس المرهف ، والادراك النافذ ، لغة كاملة معجبة عجيبة ، تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة ، وتمثل كلماتها خطرات النفوس ، تكاد تتجلى معانيها في اجراس الالفاظ ، وتمثل في نبرات الحروف ، كأنما كلماتها خطرات الضمير ، ونبضات القلوب ، ونبرات الحياة . فالعاني المحسة والمعقولة مبنية في الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الاشياء المتشابهة ، فتضع للشبه لفظا غير ما وضعت له ، ادراكا للفرق الدقيق بينهما ، فاذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة ، وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه من الجسم ، واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة لكل صيغة دلت العربية على كل حلية في الانسان وكل صفة في عينيه ، وحاجبه واثفه وفمه وأسنانه وغيرها بأسماء خاصة ، ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات يتجلى في التركيب مدهشا ، فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم ، أو تحس بها الكلمة نفسها فتعطي أوتاخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة ، فالكلمة الاصلية لها أقوى الاصوات وهو الضم ، والآخرى لها الفتح والجر ، وما أرى هذا الا ضربا من الحياة في الالفاظ والتركيب يبين عن أدق الاحساس والطفه .

واذا اشتبكت اللغات على كلمات هي : مادتها . ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة ، فيها مادة ووزن ، فخذ المادة أو اخلقها أو استعمرها من لغة أخرى ، ثم صبها في قالب من قوالب الاسماء والانفعال وصورها بالقوالب أو الاوزان ، فمن سبغ فاعلا أو مفعولا ادرك أن هذا الوزن في حركته وسكنته له معنى يلزمه في المواد كلها ، وبهذا امتازت اللغة العربية واستبانست خصائصها ، حتى نفت عن نفسها كل كلمة أجنبية

ما لم تخضع لاوزانها وقوانينها ، للاسماء أوزان ، وللأفعال أوزان ، فما لا تزنه هذه الاوزان فهو اجنبي ، وبهذا بقيت على الدهر المتطاوول خالصة نقية صحيحة توية .

وقد امتحنت هذه اللغة : الحضارة الواسعة ، واختبرها التاريخ الطويل ، فلم تعجز ولم تضق بكل ما أدركه الانسان من علم ، وثقفة من صناعة ، بل وسعت حضارة القرون المتطاولة ، والامم المختلفة غير كارهة ، ولا مكرهة ، وقد أراد الله لها أن تكون لغة كتابه وترجمان وحيه ، وبلاغ رسالته ، فاشتبكت على العالم الحسي والعقلي مصورا في كلمات وآيات ، وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للانسان عقل وقلب ، وما استقام له احساس وادراك .

وتقلب الزمن وتوالت المحن وثار الفتن ، وهي ثابتة ناضرة رائعة ثبات قوانين ، وروعة كواكبه .

محييت لغات ، وبدلت لغات ، وحرفت لغات والعربية هي العربية ، لم تح ولم تغير ولم تبدل . ما آية الخلود في هذا ؟

ولم تبق العربية لغة العرب وحدهم ، بل تفتتها الامم الاخرى ، وأولتها من العناية والحفاوة أكثر مما أولت لغاتها أحيانا ، فصارت لغة العلوم والآداب للعرب ، وغير العرب ، حقا طويلة ، ما بين أقصى المغرب وأقصى المشرق ولا تزال لغة ادب وعلم في الامم الاسلامية غير العربية .

وقد حوت على مر العصور ادبا لا تحويه لغة أخرى ، ما بين الصين الى بحر الظلمات .

فالعربية بأهلها وموطنها وخصائصها وآدابها وتاريخها ، العربية بقرآنها خالدة باقية على الخطوب والعصور ، لغة دين وعلم وادب وحضارة وانسانية(2)

ولقد اشترك مع العربية لغتان أخريان بكونهما لغتين عموميتين- لامكار دينية وآداب اجتماعية ، ومذاهب سياسية ، انتشرت بين أمم مختلفة ، هاتان اللغتان هما : اللغة اللاتينية . واللغة اليونانية .

لقد كانت اللاتينية تستعمل من (كمبانيا) في ايطاليا الجنوبية ، الى الجزر البريطانية ومن نهر الراين الى جبل الاطلس .

(1) انظر مقال : د/شوقي ضيف . مجلة العربي رقم 58 .

(2) انظر : كتاب (مهد العرب) للدكتور عبد الوهاب عزام . اقرأ رقم 040 القاهرة .

واستعملت اليونانية من اقاصي صقلية السى شاطئء نجلة ، ومن البحر الاسود السى تخوم الحبشة . لكن ما اضيق هذا الانتشار اذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء ، وجنوب آسيا وشمالها السى ما وراء بلاد التتر .

لقد امست اللاتينية واليونانية في صف اللغات الضعيفة منذ هبطت مدينتاهما فما الذي حفظ اللغة العربية حية رغم ما مر بها من محن وأهوال ؟

ان الذي كان باعنا على قيام الحضارة العربية الاسلامية ، هو هو الذي ما زال حافظ العربية السى اليوم هو القرآن الكريم ، والاسلام يرمي الى التوحيد توحيد الانسانية في الاخاء الانساني ، وتوحيد البشرية في الانتاج المادي ، وتوحيد المسلمين في الحديث بالعربية . ولغة الاسلام : العربية .

وستظل العربية حية ما دام الاسلام حيا ، وستزداد قوة العربية كلما ازداد المسلمون تقدموا وفلاخا ونجاحا .

خصائص اللغة العربية ومميزاتها :

وللغة العربية خصائص ومميزات ، بزت بها غيرها ، لا تدانيها فيها لغة من لغات العالم ، فانت تستطيع أن تصنع من كلماتها الخلاقة ومفرداتها المانوسة قطعا تسحر الالباب ، وتأخذ بالاهتمام ، وتشخذ الهمم ، وتنبه العقول .

وقد اعتنت اللغة العربية بجمال اللفاظ وحسن هيئتها ، وذلك اهتماما منها بالمعنى حتى يقع القول من نفس السامع الموقع المرجو . الذي يهيبء له الحالة النفسية التي تحفره الى الحركة واليقظة والعمل . والحق يقال أن العربية بهذا أصبحت من أكثر لغات العالم دلالة معنوية .

قال جورجى زيدان : « الفعل (قضى) معناه (حكم) والاصل فيه القطع الحسى ، والفعل (عقل) معناه (فهم) وهو مأخوذ من : عقل الناقة ، اي ربطها ، والفعل (ادرك) الاصل فيه البلوغ الحسى ، فيقال فلان ادرك القطار اي لحقه ، والفعل (بلغ) وضع أصلا للدلالة على الوصول الحسى في المكان والزمان ، بل ان الاصل في معنى (الفصاحة) قولهم : فصيح

اللبن ، اذا ذهبت رغوته ، ثم قيل : فصح بمعنى وضع ، و(الرأى) صله من (رأى) اي شهد بعينه (3) .

وفي اللغة العربية ضيغ وقوالب وابنية ، تدل على معان وصفات وأحوال ، فما كان على (فعلان) دل على الحركة والاضطراب ، كالنزوان والغليان ، والضريان ، والهبجان ، وما كان على (فعلان) دل على صفات تقع من أحوال كالعطشان والغرثان والشبعان والريان والغضبان ، وما كان على (فعل) دل على صفات بالالوان نحو : ابيض واحمر واسود وأصفر وأخضر ، وكذلك العيوب تكون على (فعل) نحو : أزرق وأحول وأعور وأترع وأقطع وأعرج واضيق ، وتكون الادواء على (فعل) : كالصداع والزكام والسعال والخناق والكباد ، والاصوات اكثرها على هذا : كالصراخ والنباح والضباع والرغاء والثغاء والخوار ، وفصل آخر منها على (فعل) : كالضجيج ، والهرير والهدير والصهيل والنهيق والضغيب والزئير والنعيق والنميب والخرير والصوير ، وحكايات الاصوات على (فعل) : كالصرصة والقرقرة والفرغرة ، واطعمة العرب على (فعل) : كالسبخة والعصيدة ، واللينة ، والنقبة ، والعقيقة ، وأكثر الادوية على (فعل) : كالسقوط ، والوجود ، واللدود ، والذرور ، والقطور ، وأكثر العادات في الاستنكار على (فعل) نحو مطعمان و مطعم ، ومضرب ومضيق ، ومكثار ، ومهذار ، وامرأة معطار ، ومذكار ، ومثناث (4) .

وابنية الافعال عامل قوي من عوامل ثروة اللغة العربية . وقدرتها على الدلالة على فرق وظلال تنضاف الى المعنى الاصلي دون زيادة في اللفظ وقد عقد الثعالبي في فقه (اللغة وسر العربية) فصلا في ابنية الافعال ، فقال : في الاكثر الاغلب (فعل) يكون بمعنى التكثير كقوله - عز ذكره - : « وغلقت الابواب » وقوله : « يذبجون ابناكم » ، و(فعل) يكون بمعنى افعل نحو : خبر وأخبر ، وكرم وأكرم ، ونزل وانزل ، ويكون فعل بنية لا معنى ، نحو : كلم ، ويكون بمعنى نسب ، نحو (طلبه بتشديد اللام) اذا نسبه الى الظلم .

(وافعل) يكون بمعنى فعل ، نحو : استسى وسقى ، و(فاعل) يكون بين اثنين نحو : ضاربه وبارزه ، ويكون بمعنى (فعل) كقول الله عز وجل : « تاتلهم

(3) راجع كتاب (الفلسفة اللغوية) لجرجى زيدان . الطبعة الثالثة القاهرة ص 110 .

(4) انظر ص 552 - 554 من فقه اللغة للثعالبي ط . المكتبة التجارية بالقاهرة .

الله « أي قتلهم ، (وتفاعل) يكون بين اثنين وبين الجماعة ، نحو : تجادلا ، وتناظرا ، ويكون من واحد نحو : تراءى له ، ويكون بمعنى أظهر ، نحو : تغافل وتجاهل ، إذا أظهر غفلة وجهلا ، (وتفعل) يكون بمعنى (فعل) نحو : تخلصه إذا خلصه . (واستفعل) يكون بمعنى التكلف ، نحو : استعظم أي تعظم ، ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء والطلب ، نحو : استعظم ويكون بمعنى صار ، نحو : استنشق الجبل (5) .

وشئ آخر يجعل اللغة العربية أكثر مرونة في الواقع من غيرها من اللغات الحية المعروفة ، وهو أنها أكثر اللغات قبولاً للاشتقاق ، والاشتقاق بسبب واسع تستطيع به اللغة أن تؤدي معاني الحضارة الحديثة على اختلافها ، والاشتقاق في العربية يقوم بدور لا يستهان به في تنوع المعنى الأصلي وتلويحه ، إذ يكسبه خواص مختلفة بين طبع وتطبع ومبالغة وتعديّة ومطاوعة ، ومشاركة ، ومبادلة مما لا يتيسر التعبير عنه في اللغات الآرية مثلاً ، إلا بالفاظ خاصة ذات معانٍ مستقلة ، ولا نزاع في أن منهج اللغة العربية الفريد في الاشتقاق ، قد زودها بذخيرة من المعاني لا يسهل أداؤها في الأخرى . وقد لاحظ السيوطي هذه الزيادة في المعنى المشترك حين عرف الاشتقاق بأنه « أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقها معنى ومادة وهيئة تركيب ، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة ، لاجلها اختلفا هيئة أو حرفاً » وجلي أن هذه الطريقة في توليد اللفاظ بعضها من بعض تجعل من اللغة جسماً حياً ، تتوالد أجزاؤه ، ويتصل بعضها ببعض ، بأواصر قوية واضحة ، وتغني عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنعزلة التي كان لابد منها لو عدم الاشتقاق ، وأن هذا الارتباط بين الفاظ العربية الذي يقوم على ثبات عناصر مادية ظاهرة ، وهي الحروف أو الأصوات الثلاثة وثبات قدر من المعنى سواء كان مادياً ظاهراً ، أو مختفياً مستتراً ، خصيصة عظيمة لهذه اللغة تشمر متعلمها بما بين الفاظها من صلوات حية ، تسمح لنا بالتقول بأن ارتباطها حيوي ، وأن طريقتها حيوية توليدية ، وليست آلية جامدة .

وهي تدل بالحركات على المعاني المختلفة ، من غير أن تكون تلك الحركات أثراً لقطع أو بقية من أداة فيكون ذلك في وسط الكلمة وأولها وآخرها : فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول في مثل مكرم ، ومكرم ، وبين فعل المعلوم وفعل المجهول ، نحو : كتب وكتب ، وبين الفعل والمصدر ، في مثل : علم وعلم ، وبين الوصف والمصدر ، في مثل نرح ونرح ، وبين المفرد والجمع في مثل : أسد وأسد (6) .

هذه العلامات الاعرابية إشارة إلى معانٍ يقصد إليها . فاللغة العربية إذن تجعل الصدارة للمعنى . ولا نعرف بين اللغات الكبرى لغة أصلح من لغتنا العربية لهذا الباب من أبواب الدراسة اللغوية ، لأن مخارج حروفها مستوفاة متميزة (7) .

قال ابن جني : فكأن العرب إنما تحلى الفاظها وتدبجها وتشبهها وترخرفها ، غناية منها بالمعاني التي وراءها ، وتوصلاً بها إلى إدراك مطالبها ، وقد تال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أن من الشعر لحكمة وأن من البيان لسحرا) فإذا كان رسول الله يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء القوم ، التي جعلت مصائد وإشراكاً للتلويح ، وسبباً وسلماً إلى تحصيل المطلوب ، عرف بذلك أن اللفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم — لا شك — أشرف من الخادم (8) .

فإذا رأيت العرب قد أصلحوا الفاظها — أي العربية — وحسنوها ، وحبوا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه وتشريف ، ونظير ذلك ، وإنما الوعاء وتحسينه ، وتركيبه وتقديسه ، وإنما المبغى بذلك منه الاحتياط للمعنى عليه وجواره بما يعطر بنشره ، ولا يمر جوهره كما قد تجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ، ويفص منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه (9) .

وفي باب (اصلاح اللفظ) قال ابن جني : « اعلم انه لما كانت الالفاظ للمعاني أئمة وعليها أدلة واليهما

(5) انظر ص 549 — 551 من فقه اللغة للثعالبي نفس الطبعة السابقة .

(6) انظر ص 47 — 49 من فلسفة اللغة العربية. عثمان أمين ، المكتبة الثقافية 144 ، القاهرة .

(7) من كتاب اشتات مجتمعات — عباس العقاد ص 49 — دار المعارف بمصر .

(8) الخصائص لابن جني ص 228 ج 1 مطبعة الهلال بمصر 1912 م .

(9) المرجع السابق ص 225

موصلة ، وعلى المراد منها محصلة ، عنيت العرب بها ،
نأولتها صالحا من تثقيفها وأصلاحها (10) .

ويدلك على تمكن المعنى من أنفسهم ، وتقدمه
للغز عندهم ، تقديمهم لحرف المعنى من أول الكلمة ،
وذلك لقوة العناية به ، فقدموا دليله ليكون ذلك
أمانة لتمكنه عندهم ، وعلى ذلك تقدمت حروف
المضارعة في أول الفعل اذ كن دلائل على الفاعلين ،
من هم ، وما هم ، وكم عدتهم ، نحو : افعل ، وتفعل ،
وتفعل ، ويفعل : فالمعاني أقوى عند العرب ، وأكرم
عليهم ، وأفخم قدرا في نفوسهم ، لهذا أصلحوا الألفاظ ،
وبالغوا في تحبيرها ، وتحسينها ، لتكون المعاني ،
أوقع في السمع وأذهب في الدلالة على التصد .

ومن خصائص العربية التي تعرب عن قوتها
وفاعليتها في الحياة ، وتوثبها الى العملا والسمو :
الحركية ، وكأن اللغة العربية بهذه الحركية تدفع
بأبقائها الى المجد دفعا وتغرس فيهم حب العمل
والحركة ، فلا ينبغي أن تكون اللغة متحركة مرنة
وأهلها جامدون ساكنون .

قال العالم ابن جني : أن معنى قول ابن وجدت ،
وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض ،
وتأخره عنه إنما هو للخفوف والحركة ،
وجبات تراكيبها الست مستعملة كلها لم يهمل منها
شيء عو هي (قول) (وقل) (وولق) (ولق) (والق) (والوق)
قول وهو القول : وذلك أن الفم واللسان يخفان له
ويقلقان ويمذلان به . وهو بحد السكوت الذي هو
داعية الى السكون . الا ترى ان الابتداء لما كان
أخذا ، في القول لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركا ،
ولما كان الانتهاء أخذا في السكوت . لم يكن الحرف
الموقوف عليه الا ساكنا ، وأما « كلم » فهذه أيضا
حالتها وذلك أنها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على
القوة والشدة (11) .

وتأكيدا لهذا المعنى قال ابن جني « وذلك إنما
عقدنا تقاليب الكلام الستة على القوة والشدة ،
وتقاليب القول الستة على الإسراع والخفة (12) .

أرايت لغة تبيء الحالة النفسية في الانسانية ،
وتحفز الهم الى الوثوب والحركة ، وتشحذ النفوس

الى الاصاله والابتكار والابداع مثل اللغة العربية ؟
ولعلنا نعرف ان هذا هو السر في بلوغ المسلمين
أوج العظمة والحضارة ، وقيادة الدنيا ، وذلك
حينما كانوا عاملين ببيداء تعاليم الاسلام .

قال الدكتور عثمان امين : اما عن الحركية فاللغات
الغربية لا ترى ماتعا من البدء بالحروف الساكنة ،
فاسم (افلاطون) في جميع تلك اللغات مبدوء بحرفين
ساكنين ، أما في اللغة العربية ، فقد امتنع النطق
بالحرف الساكن في أول الكلمة ، ولذلك أضاف العرب
الفا أو همزة الى حروف اسم افلاطون ، كما يتيسر
النطق به تمثيلا مع فلسفة اللغة العربية ، التي
تمنع الناطق بها من النطق بالحروف الساكنة في أول
الكلام ، لان تلك الفلسفة تفترض أن كل قول اذا كان
قولا جادا ، ينبغي أن يكون بمنزلة الفعل ، أو ان يبيء
مائله أو سامعه للفعل المرتقب ، والفعل يقتضي
الحركة ويستلزم الخفوف كما قال ابن جني ، وأي
قول لا يكون فيه حركية أو تهيؤ للفعل فهو عبث أو
لهو ، وفلسفة العربية تريد أن تنزه أهلها عن لغو
الكلام (13) .

والحركية في العربية حركية حياة خلقة مبدعة ،
ذات عبقرية خاصة ، وهي لاكتنفي بمسايرة التطورات
المستحدثة ، كما تفعل بقية اللغات ، بل يجد الباحث
المنصف فيها حركة بشرية في تفاعلها ، فكانها كائن
يذهب ويحيى وتموج فيه العواطف والاحاسيس ، ومن
أبرز الميزات في العربية أن كلماتها تنعم بهذه الحياة
وبهذه الحركية ، في الحين الذي نجد الكلمات في
سائر اللغات أدوات جامدة ، لا يعرف فيها شيء من
الحياة ، الا بعد أن تجتمع طائفة منها الى بعضها ،
وتؤلف عبارة .

ان العربية في عبقريتها ، لم تكف بهذا المنطق
الذي هو في حد ذاته قاعدة بل عمدت الى أكثر من
ذلك . وها هي ظاهرة من ظواهر حياتها وحركتها حتى
في الكلمات ، فهي تتساهل أشمل ما يكون التساهل
حيال من يتكلمها ، كما يفعل الرجل الشهم ازاء
صاحبه تماما ، خذ مثلا كلمة (غضروف) ان اجتماع
الفين والضاد يُثقل أحيانا على اللفظ وتناسق
الكلمات في الكلمة يجعلها سريعة الانفصال عن

(10) نفس المصدر ص 217 .

(11) الخصائص لابن جني ج 1 ص 5 - 12 .

(12) الخصائص لابن جني ج 1 ص 527 .

(13) محاضرات جامعة الأزهر - الموسم الثاني 1962 م

أخواتها في العبارة ، وفي السرعة ، فماذا تفعل
اللغة العربية لتتلقى هذا الأمر ؟ انها تتساهل معك ،
وتقول لك ، اذا لم تستطع أن تلفظ كلمة (غضروف)
فاللفظ كلمة (غرضوف) فانها هي نفسها .

ان اللغة العربية لا تتعنت الى الدرجة التي
تشعر بالبغض لها ، بل هي تأخذك بالحسنى ،
فاذا انت من نبالة عواطفها ، ومن شهامة أخلاتها
أسير لا تكاد تملك من امرك شيئا . والحياة التي
فيها حياة ذات مقاصد ، تريد أن يكون التعبير جميلا
وتريد أن يمتد هدفها الى أكثر من ذلك فيتحول الى
فكرة مستمرة للجمال والذوق والنكاه ، فكرة تندفع
بصورة تلقائية وتتولد من نفسها كالطاقة الذرية
سواء بسواء (14) .

وانتقل بالقارئ العربي الى خاصة أخرى من
خصائص العربية . هذه الخاصية هي الاعراب
والاعراب هو : الإبانة عن المعاني بالألفاظ ولفظة
اعراب مصدر من اعربت عن الشيء اذا أوضحت
عنه يقال فلان معرب عن ما في نفسه : أي مبين له ،
وموضح عنه .

الا ترى أنك اذا سمعت اكرم سعيد أباه ،
وشكر سعيدا أبوه ، علمت برفع احدها ونصب الآخر
الفاعل من المفعول ولو كان الكلام شرجا واحدا
لاستبهم احدها من صاحبه .

وأصل هذا كله تولهم « العرب » وذلك لما يعزى
اليه من الفصاحة ، والاعراب والبيان . ومنه تولهم
في الحديث « الثيب تعرب عن نفسها » والمعرب
صاحب الخيل العراب ، وعليه قول الشاعر :

ويصهل في مثل جوف الطو

ي صهيلا تبين للمعرب

أي اذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم أنه
عربي (15) .

فالأعراب فلسفته : الإبانة عن نظم تكوين
الجميل بالحالات المختلفة للكلمة ، وعن صلوات
الكلمات بعضها ببعض ، ويمكن أن نقول : ان الاعراب
دعوة الى الترابط والتآلف واعطاء كل ذي حق حقه
دون ما ليس أو ابهام .

والعربية لفة وضوح وجلاء ، والاعراب احدى
وسائلها لتحقيق هذه الغاية . وفي اللغات الخالية من
الاعراب يعتمد أهل اللغة على القرائن ، وعلى اضافة
كلمات الى الجملة لفهم المقصود من المعاني ، ولكن
الانكال على القرائن ، وعلى اضافة بعض الكلمات ،
ربما لا يطرد . فواجبت لغة العرب التفرقة بين الفاعل
والمفعول بالاعراب والا وقع الإبهام وبهذا الصدد يحكى
أن رجلا دخل على أمير المؤمنين علي - كرم الله
وجهه - فقال له من غير اعراب : (قتل الناس عثمان)
فقال له علي أمير المؤمنين : بين الفاعل من المفعول
رصد الله فاك وكذلك لا تستطيع التفرقة بين النفسي
والتعجب والاستفهام الا بالاعراب لان الصيغة فيها
جميعا واحدة ، وحكاية أبي الاسود الدؤلي مع ابنته
مشهورة ، اذ كانت تشاهد السماء ، وتعجب لمنظرها ،
فقال : ما احسن (بضم النون) السماء فقال أبوها :
نجومها فمالت : ما عن هذا أسأل ، وانما انا أعجب .
فقال : لها اذن تولي : ما احسن السماء . وافتحى
فاك ، وهكذا وضع باب التعجب ، وباب الاستفهام في
العربية .

الاعراب اذن مطلب العقل في اللغة ولذلك نرى
ان الاعراب ارتقى ما وصلت اليه اللغات في الإبانة
والوضوح . وهذه المرتبة قد بلغتها العربية
الفصحى ، ولا يشاركها فيه من اللغات القديمة الا
اليونانية واللاتينية ، ولا يشاركها فيه من اللغات
الحية الا الالمانية . أما اللغات الآرية الحديثة -
وتشمل معظم لغات اوربا الحديثة - فقد خلت من
الاعراب ، ولا يميز فيها بين الرفع والنصب والجر ،
وانما يقوم مقامها الحاق ادوات خاصة بذلك معظمها
من حروف الجر ، أو بتقديم الألفاظ وتأخيرها ، مما
لا يخرج عن الوضع الخارجي ، في المكان ، هذا في
حين ان اللغة العربية ، قد استلذت من أول الامر ،
ان يكون الفكر الواعي مجددا للوضع الخارجي ، وأن
يكون النظر الى المعنى : هو المبرر للتقديم والتأخير
وتأكيد الاسناد وغير ذلك (16) .

ونحن نعني بالاعراب تغيير اواخر الكلم بتغيير
العوامل عليها بالرفع والنصب والجر والسكون ،
واللغات الحية في العالم المتقدم الآن تعد بالعشرات
ليس بينها من اللغات المعربة الا ثلاث : وهي العربية

(14) انظر مقال الياس قنصل - مجلة الاقلام المجلد الاول - بغداد .

(15) الخصائص ج 1 ص 22 - 24 .

(16) انظر : كتاب (فلسفة اللغة العربية) الدكتور عثمان أمين المكتبة الثقافية عدد 144 القاهرة .

العربي من مادة الفاظه ومفرداته في اسلوب الوائع
واسلوب المجاز (19) .

ولقد شهد للغة العربية كبار الباحثين والعلماء
والمستشرقين ، من غير العرب . وكان هذا منهم
اعرابا عن الحقيقة التي لا يسوغ انكارها ، ومرضاة
للعلم في ذاته .

قال : اغناطيوس كراتشكوفسكي : اول ما
نلاحظه من اول نظرة نلقيها على هذه اللغة - اي
العربية - الفنى العظيم في الكلمات ، والاتقان في
الشكل والليونسة في التركيب .

وقال الدكتور (ستنجاسي) : ولنسائل انفسنا
ماذا كان مصير هذه اللغة العربية ، لو لم يكن محمد .
ولو لم يكن القرآن ؟ ونحن لا ننكر ان اللغة العربية
انتجت قبل الاسلام الوانا عديدة من الشعر ، وهي
غاية في الحسن والرقعة الا انها كانت كلها محفوظة
في اذهان الناس وغير مكتوبة ، زد على ذلك ان
الشعر العربي ، ليس هو الادب كله .

وقال المستشرق (ارنست رينان) : من أغرب
الدهشات ان تثبت تلك اللغة العربية القوية ، وتصل
الى درجة الكمال وسط الصحارى ، عند أمة من
الرحل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها،
ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه
اللغة مجهولة عند الامم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا
في حلال الكمال ، ولم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا
طفولة ولا شيخوخة ، لا نكاد نعلم من شأنها الا
فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى ، ولا نعلم
شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين من غير
تدرج ، وبقية حافظة لكيانها من كل شائبة .

وقال (شينجلر) : ان اللغة العربية لعبت ،
دورا اساسيا كوسيلة لنشر المعارف وآلة للتفكير ،
في خلال المرحلة التاريخية التي بدأت ، حين احتكر
العرب - على حساب الرومان واليونان - طريق
الهند .

وقال العلامة (فريتاج الالماني) : ان اللغة
العربية ليست اغنى لغات العالم فحسب ، بل ان
الذين نبغوا في التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العد ،

وابنتها الحبشية واللغة الالمانية (17) وقد أشار
عبد الرحمن بن خلدون الى مكانة العرب من كلام
العرب فقال : فان كلامهم - اي العرب - واسع ،
ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب
والابانة . الا ترى ان قولهم زيد جاغني مغاير لقولهم :
جاغني زيد ، من قبل ان المتقدم منها هو الالم عند
المتكلم ؟ فمن قال : زيد جاغني ، أفاد أن اهتمامه
بالشخص قبل الجيء المسند . وكذلك التعبير عن
اجزاء الجملة ، بما يناسب المقام من موصول أو مبهم
أو معرفة . وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم :
زيد قائم ، وان زيدا قائم ، وان زيدا لقائم ، متغايرة
كلها في الادلة وان استوت من طريق الاعراب ، فان
الاول العاري عن التأكيد انما يفيد الخالي الذهن ،
والثاني المؤكد يفيد المتردد ، والثالث يفيد المفكر ،
فهي مختلفة (18) .

واذا كانت العربية عنيت بالاعراب توضيحا
للمخاطب والسامع وراحة للمتكلم ، فحرصا منها
على وقت السامع والمتكلم توخت التركيز في المعنى
والابجاز في الجملة اقتدارا واختصارا وتوسعا وثقة
بفهم المخاطب . قال الله تعالى : « كل من عليها فان »
اي على الارض ، وقال عز وجل : « حتى توارت
بالحجاب » يعني الشمس . وقال « كلا اذا بلغست
التراقي » يعني الروح .

وقد تستعمل العربية حرفا واحدا يدل على
معان كثيرة ويعبر عن اغراض متنوعة . مثال ذلك
حرف (اللام) فمنه : لام التوكيد ، ولام الاستغناء،
ولام التعجب ، ولام الملك ، ولام السبب ، ولام الوقت
ولام التخصيص ، ولام الامر ، ولام الجزاء ، ولام
القسم ، على ان في اللغة العربية مرونة وحسنا
موسيقيا يجعلانها لا تتردد في ان تزيد او تحذف ،
حفظا للتوازن ، وايقارها له ، فالزيادة مثل : قوله
تعالى « وتظنون بالله الظنونا » . « فاضلونا السبيلا »
والحذف مثل : قوله تعالى : « والليل اذا يسر »

ولهذا كله قال صاحب العبريات : « واللغة
العربية في طبيعة اللغات المعبرة بين لغات العالم
الشرقية او الغربية : فلا يعرف علماء
اللغات لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم وصفات اوطانهم
من كلماتهم والفاظهم ، كما تتراءى لنا اطوار المجتمع

(17) راجع كتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) جرجي زيدان ج 1 ص 42 الطبعة الثالثة - القاهرة .

(18) مقدمة ابن خلدون ط/ دار التحرير للطبع والنشر ، 1966 م - القاهرة .

(19) انظر مجلة الازهر مارس 1959 مقال عباس المقاد .

وان اختلاطنا عنهم في الزمان والسجيا والاخلاق اقام بيننا ونحن الغرباء عن العربية — وبين ما الفسوه حجابا لا يقين ما وراءه الا بصعوبة .

وقال (ريتشرد كويتهيل) : انه لا يعقل ان تحلل اللغة الفرنسية أو الانجليزية محل اللغة العربية ، وان شعبا له آداب غنية منوعة كالآداب العربية ، ولغة مرنة ذات مادة تكاد لا تفتنى ، لا يخون ماضيه ، ولا ينبذ ارثا اتصل اليه بعد قرون طويلة عن آباءه وأجداده ، وان التباين الجزئي الذي يبدو بين اللهجات العربية ، لابد أن يزول .

وقال (وليم رول) : ان اللغة العربية لم تنتهقر قط فيما مضى امام اي لغة من اللغات التي احتكت بها ، وأنها ستحافظ على كيانها في المستقبل ، كما فعلت في الماضي وان لها لينا ومرونة يكفانها من التكيف وفقا لمقتضيات العصر .

وقال (ماجليوت) : ان اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية ، وأنها احدى ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليه غيرها الانجليزية والفرنسية ، وهي تخالف أختيها بأن زمان حدوثها معروف ، ولا يزيد سنها على قرون معدودة ، أما اللغة العربية فابتدأها أقدم من كل تاريخ .

وقال ادوارد فان ديك : اللغة العربية من أكثر لغات الارض امتيازاً ، وهذا الامتياز من وجهين ، الاول : من حيث ثروة معجمها ، والثاني من حيث استيعاب آدابها .

وقال (بروكلمان) : ولغة الشعر العربي هذه ، قد تميزت ميزة عظمى من الصور النحوية ، وقد

بلغت من حيث دقة التعبير عن علاقات الاعراب والنحو ، ذروة التطور في اللغات السامية ، ومعجم العربية اللغوي لا يجاريه معجم في ثرائه ، انه نهر تقوم على ارفاده منابع اللهجات الخاصة التي تنطق بها القبائل العربية .

وقال (لوي مسينيون) : في حين ان اللغة السريانية نقلت اجرومييتها عن اللغة اليونانية نقلا ، استطاعت لغة الضاد ان تشيد بناء فخما من الاعراب يضع امام الابصار مشهدا فلسفيا ذا أصالة وابتكار . ويفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه اي لغة أخرى من لغات الدنيا والمسلمون جميعا ، مؤمنون بأن العربية هي : وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلاتهم ، وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعة نالت جميع اللغات الأخرى التي تنطق بها شعوب اسلامية .

وقال (رانكه) الفيلسوف الألماني : ان الثقافة الانسانية تعتمد على لغتين كلاسيكيتين هما : العربية واللاتينية ، وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية ، فقد نشأت اللغة العربية في الشرق وحا فنية . ولا يمكن فهم المصنفات الادبية الفارسية أو التركية بدون العودة الى الكلمات العربية وخاصة : أن وحي القرآن الكريم الذي لا يجارى ، يعد — بلا مراء — اساس العقيدة الانسانية والثقافة البشرية .

ويعد . هذه هي اللغة العربية المتدفقة . وهذا هو مجمل آراء وشهادات المستشرقين وتلك خصائصها كما عرفناها ، فما اعرقها لغة ، انها لغة المسلمين والاسلام .

